قراءة في
أدب السيرة الذاتية السعودي
عند عبدالله الحيدري

أ.د. محمود الضبع

أستاذ النقد والأدب الحديث بكلية الآداب جامعة قناة السويس

يتداخل أدب السيرة الذاتية مع فنون قريبة يحدث بينها الخلط من قبيل: رواية السيرة الذاتية، والسرد السير الذاتي، والسيرة الروائية، وهو خلط ينتج بعضه في الغالب الأعم عن التقاطع الحادث في الأنواع الأدبية وهدم الحدود الفاصلة بينها، وينتج بعضه عن ذائقة التلقي التي لم يعد في الإمكان إغفالها في تحديد جماليات النوع، والتي قبلت هذا التداخل واعتبرته مكملا وليس عيبا أو انتقاصا من أسس تشكيل النوع في الأساس.

وقد ارتبطت فنون وآداب السيرة الذاتية بعصور النهضة الحديثة، وساعدت على ذلك حركات التعليم التي بدأت في الانتشار منذ القرن التاسع عشر في معظم بلدان الوطن العربي، وهو ما أفرز أجيالا من الأعلام العرب تعمقت تجربتهم في الحياة، وشهدوا تحولات المجتمعات العربية وانتقالاتها الاجتماعية والفكرية والسياسية، وأسهموا في نهضة البلاد العمرانية والحضارية والعلمية، ومن ثم كان لديهم ما يستحق الكتابة عنه، وتسجيله، وهو ما كانت له صيغ متعددة، بعضها هو أدب السيرة الذاتية، أو الأدب السير ذاتي.

من هنا يأتي اهتمام عبدالله الحيدري بهذا الفن، والذي سجل فيه رسالته للماجستير في كلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وصدرت بعد ذلك في كتاب عنوانه "السيرة الذاتية في الأدب السعودي"، وذلك في العام ١٤١٧هـ– ١٩٩٦م، واستمر الاهتمام بالموضوع عبر مقالات وأطروحات امتدت عبر الزمن ليصدر بعد ذلك بما يزيد عن العشر سنوات كتاب "إضاءات في أدب السيرة والسيرة الذاتية: بحوث ومقالات وحوارات"، ثم بعدها بعامين صدرت ببليوجرافيا عن السيرة الذاتية في المملكة العربية السعودية، ومؤخرا في العام ٢٠١٨م صدر كتاب "نظرات وشذرات: بحوث ومقالات وحوارات في السيرة الذاتية".

هذا الامتداد الزمني في الاهتمام بأدب السيرة الذاتية، **إنما له علامات دالة،** بعضها قد يعود لانشغال الحيدري نفسه بقضية بدأها بحثا منذ بدايات سنوات الدراسات العليا – كما يذكر ذلك في إحدى مقدمات كتبه–، وبعضها سيدلنا على

واقع ومنجز الأدب السير ذاتي في المملكة العربية السعودية، وهو الأمر الذي قلما نتحصل عليه في دراسات لبقية الشعوب والبلدان العربية، بل قد نعاني في كثير من الأحيان بحثا عن ترجمة واحدة لمبدع أو مؤلف أو باحث عربي، وبخاصة قبل انتشار التقنيات الرقمية المعاصرة التي أسهمت في إتاحة الكثير من البيانات والمعلومات التي يضعها المؤلفون أنفسهم على المنصات العلمية والبحثية المعنية بذلك.

كان اهتمام الحيدري إذًا بأدب السيرة الذاتية مبكرا، غير أن الأهم ليس هو التبكير، وإنما الجهد التجميعي والتحليلي الذي قام به في، كما تكشف عنه المؤلفات المنجزة بالفعل، فإذا كان الكتاب الأول على سبيل المثال لم يستوف حق واحد من أهم كتاب السيرة في المملكة هو عبدالعزيز الخويطر في مؤلفه ذي الثلاثة أجزاء "وسم على أديم الزمن"، فإن الحيدري يعود ليتدارك ذلك في مؤلفاته اللاحقة، وكأنه يستكمل المشهد إجمالا، ويحاول الإحاطة به في كل الكتب التي تبنت صراحة صيغ كتابة السيرة الذاتية.

في كتابه الأول، "السيرة الذاتية في الأدب السعودي"، يتتبع الحيدري نشأة وتطور هذا النوع من الكتابة في الأدب السعودي، وبكل الصيغ والأشكال: المذكرات واليوميات والاعترافات والذكريات، مع تحديد الفروق النوعية بينها بوصفها مصطلحات ومفاهيم حديثة التقنيات في الأدب العالمي.

ويصنف الحيدري اتجاهات وطرق كتابة السيرة الذاتية في الأدب السعودي تبعا لتوجهات الكتاب إلى:

الذين يعطون قرَّاءَهم كل شيء عن حياتهم وسيرتهم الشخصية، مثل السباعي في "أيامي". وحسن محمد كتبي في "هذه حياتي"، وعبدالعزيز الربيع في "ذكريات طفل وديع".

الذين يسجلون مرحلة أو مراحل محددة من حياتهم، ومنهم: حسن نصيف

في "مذكرات طالب"، وحسن قزاز في "مشواري مع الكلمة"، وعلي العمير في "بداياتي في الصحافة والأدب".

الذين يكتبون عن الأحداث والأيام العصيبة التي مرت بهم، ومنهم: "محمد عمر توفيق في "أيامي في المستشفى".

الذين يرصدون أسرار مهنهم وفنونهم وآدابهم، ومنهم : حسن بن عبدالله القرشي في "تجربتي الشعرية"، وغازي القصيبي في "سيرة شعرية"، ويوسف بن عبداللطيف أبو سعد في "بقايا الرذاذ".

إضافة إلى الذين تأتي سيرتهم الذاتية على نحو عارض في فصل أو فصلين عبر أحد المؤلفات الإبداعية أو الفكرية، ومنهم كتابات عبدالله باقازي عن تجربته القصصية المنشورة في مجلة الفيصل، وكتابات عبدالعزيز مشري، وعلى الدميني وغيرهم ممن سجل تجربته مع الكتابة الأدبية وعوالم الإبداع التي عايشها.

ويعرض الحيدري تفصيلا لبعض السير الذاتية المبكرة، ومنها سيرة أيامي لأحمد السباعي الصادرة عام ١٣٧٤هـ، وسيرة محمد حسن كتبي "هذه حياتي" الصادرة عام ١٣٧٦هـ، والذي أتبعه بكتاب "أشخاص في حياتي" لاستكمال سيرته، وسيرة محمد نصيف "مذكرات طالب سابق" ١٣٧٨هـ، وإن كانت فصول الكتاب قد سبق نشرها صحفيا باسم مستعار (ابن سينا).. وهكذا يستمر الحيدري في استعراض تفاصيل إصدار هذه السير الذاتية وظروف نشرها وطبعاتها، وتغير عناوينها، وغيرها من الجهود التي وقف فيها على كل تفصيلة بخصوص بدايات هذا الفن في المملكة العربية السعودية.

ينتقل الكتاب بعد ذلك **لرصد نشأة وتطور فن السيرة الذاتية في الأدب السعودي**، والتي يعود بها إلى التراجم الذاتية والمقالات الشخصية والتي بدأت مع الصبان وعبدالسلام الساسي وأحمد عبدالغفور عطار ومحمد حسن فقي، وغيرهم.. متوقفا عند كتاب يراه بداية مبكرة، هو "بين السجن والمنفي" لعبد الغفور عطار الذي

كتب في عام ١٣٥٦هـ، وصدرت طبعته الأولى في العام ١٤٠١هـ، والذي يرصد فيه تجربته العصيبة مع السجن.

ثم يتوقف الكتاب أمام **الدوافع التي أوجدت هذا النوع من الكتابة الإبداعية** في التجربة السعودية عموما، والأسباب الكامنة وراء عدم مواكبته للأجناس الأخرى من الإبداع مثل الكتابة القصصية أو الروائية أو الشعرية.

ويربط الكتاب **مراحل كتابة السيرة الذاتية في الأدب السعودي** بالحرب العالمية الثانية ونشاط حركة الصحف والمجلات عقب انتهائها ومنها مجلة المنهل، ثم النهضة الثقافية التي شهدتها المملكة في أواخر السبعينات من القرن الميلادي، راصدا كل ذلك في جدول يوضع مراحل هذه النشأة والتطور وأعداد الكتب الصادرة في هذا المجال على النحو التالي:

الرقم	العقد	عدد الأعمال	التفصيل
١	١٣٧٠-١٣٧٩هـ	خمسة	أبو زامل (١٣٧٤هـ)، ٤٦ يوماً في المستشفى (١٣٧٤هـ)، هذه حياتي (١٣٧٦هـ)،مذكرات طالب(١٣٧٦هـ)،أشخاص في حياتي (١٣٧٩هـ) .
٢	١٣٨٠-١٣٨٩هـ	لا يوجد	لايوجد
٣	١٣٩٠-١٣٩٩هـ	أربعة	أيامي (١٣٩٠هـ)، تجربتي الشعرية (١٣٩٢هـ)، ذكريات طفل وديع (١٣٩٧هـ)، ذكريات (١٣٩٧هـ).
٤	١٤٠٠-١٤٠٩هـ	سبعة	سيرة شعرية (١٤٠٠هـ)، ذكريات مدرس (١٤٠٠هـ)، رحلة الثلاثين عاماً (١٤٠١هـ)، مشواري مع الكلمة ج١(١٤٠٣هـ)، مشواري مع الكلمة ج٢ (١٤٠٤هـ)، وتلك الأيام (١٤٠٦هـ) ذكريات العهود الثلاثة (١٤٠٨هـ).
٥	١٤١٠-١٤١٩هـ	ستة عشر	أيام في المستشفى (١٤١٠هـ)،من ذكرياتي (١٤١٢هـ)، تباريح التباريح (١٤١٢هـ) رحلة العمر (١٤١٣هـ)،بداياتي في الصحافة والأدب (١٤١٣هـ)،حياتي مع الجوع والحب والحرب (١٤١٤هـ)،صفحات مطوية من تاريخنا العربي الحديث:مذكراتي خلال قرن من الأحداث (١٤١٥هـ)، شيء من التباريح (١٤١٥هـ) السنوات الأولى: ترجمة حياة (١٤١٥هـ)، حكاية الفتى مفتاح (١٤١٦هـ)، مكاشفات السيف والوردة (١٤١٧هـ)، ما لم تقله الوظيفة: صفحات من حياتي (١٤١٧هـ)، حياة في الإدارة (١٤١٨هـ)، عبدالله بلخير يتذكر (١٤١٩هـ)، و مررت بالدهناء (١٤١٩هـ).

معلقا عبر كل ذلك على **أهم الملاحظات الخاصة بنشأة وتطور هذا الفن في المملكة العربية السعودية** بشكل عام، واستفادته من الأنواع الأدبية التي كانت قد تطورت في هذه المرحلة من الكتابة الإبداعية وبخاصة تقنيات الحبكة القصصية

وفنون السرد وكتابة المقالات الصحفية وغيرها.

وعبر ذلك تأتي **مناقشة قضايا مهمة قد تبدو فرعية** لكنها مؤسسة في هذا النوع من الكتابة في المملكة، ومنها علاقة المرأة السعودية بكتابة فن السيرة الذاتية، والتي بدأت مع الشاعرة سلطانة عبدالعزيز السديري في مذكراتها التي كانت تدونها منذ سن الرابعة عشر حتي تجاوزت الستين من عمرها بسنوات، والتي نشرتها "المجلة العربية" بدءا من العام ١٤٠٨هـ في حلقات متوالية، وما ترصده في هذه السيرة من مراحل التحول في النهضة التي شهدتها المملكة بشكل عام.

ويرصد الكاتب **قوالب فن السيرة الذاتية** إجمالا والتي يلخصها في: القالب الروائي، والتفسيري التحليلي، والذي يجمع بين التحليل والتصوير.

ومن القضايا المهمة التي يتوقف الكتاب عندها، والتي يمكن مناقشتها هنا، ما يتعلق بقضية تداخل فن السيرة الذاتية مع فن الرواية، وهو موضوع تناولته العديد من الدراسات، وبخاصة في ظل مناقشة الإبداعي والواقعي بينهما، إذ يعد المتحكم الأول في تحديد الملامح الفارقة بين أدب السيرة الذاتية، والمتخيل السردي المعتمد الذاتية –السرد الروائي مثلا، هو الاحتكام إلى الواقعي والتاريخي والخارجي والحادث من حولنا، ففي حين يمكن محاكمة أدب السيرة بمطابقة الواقع والتاريخ، فإن الرواية مهما كانت معتمدة عليهما فإنها تصنع عوالم خيالية لا وجود لها في الأساس، ولا يمكن محاكمتها عليه، مثل رواية ثلاثية غرناطة لرضوى عاشور (رواية تعتمد المتخيل السردي)، في مقابل سيرة الأيام لطه حسين (أدب سيرة ذاتية).

كما يمكن التمييز بينهما عن طريق استخدام الضمير السارد، وموقع الراوي، وهو أحد العناصر الرئيسة التي يعمد السرد إلى الكشف عنها من خلال رصد موقف الراوي من شخصياته، والذي لا يخرج عن أن يكون واحدا من مواقف

ثلاثة([1])، هي:

أ– الرؤية من خلف ويستخدم الحكى الكلاسيكي غالبا هذه الطريقة "ويكون الراوي عارفا أكثر مما تعرفه الشخصية الحكائية، لأنة يستطيع أن يصل إلي كل المشاهدين عبر جدران المنازل، كما أنه يستطيع أن يدرك ما يدور بخلد الأبطال، وتتجلي سلطة الراوي هنا في أنه يستطيع مثلا أن يدرك رغبات الأبطال الخفية، تلك التى ليس لهم بها وعي هم أنفسهم"[2] وتستخدم الرؤية من خلف صيغة ضمير الغائب "هو".

ب– الرؤية المشاركة (الرؤية مع): وتكون معرفة الراوي هنا علي قدر معرفة الشخصية الحكائية، فلا يقدم الراوي أية معلومات أو تفسيرات إلا بعد أن تكون الشخصية نفسها قد توصلت إليها ويستخدم الكاتب في هذه الرؤية ضمير المتكلم أو ضمير الغائب، و الراوي علي هذا الأساس إما أن يكون شاهدا علي الأحداث، أو شخصية مساهمة في الحكاية نفسها (القصة).

ج– الرؤية من الخارج: ولا يعرف الراوي في هذا النوع إلا القليل مما تعرفه إحدى الشخصيات الحكائية، حيث يكون الراوي هنا موضوعيا لا يستطيع أن يقتحم قرائه نفس شخصياته فهو يعتمد علي الوصف الخارجي أي وصف الحركة والأصوات والمشاهدة الحسية.

وعلى هذا الأساس يمكن **رصد مظاهر حضور السارد في نصه**، بالبحث عنه وتتبع صوته، وللسارد عادة طريقان في ذلك: إما أن يكون خارجا عن نطاق

---

[1] – مع الوضع في الاعتبار أن الممارسات النصوصية الفعلية سعت إلى كسر هذه المفاهيم في الرواية ذاتها، فمثلا نجيب محفوظ في رواياته لا يخلص لموقف واحد من جهة موقع الراوي من شخصياته، فمثلا سعيد مهران في اللص والكلاب، يتنقل معه نجيب محفوظ في موقعه منه، تارة من الخارج، وتارة من الداخل، وتارة مع.

[2] – حميد لحمداني: بنية النص السردي (من منظور النقد الأدبي)، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط٣، ١٩٩٣، ص٤٥.

الحكى، أو أن يكون حاضرا بذاته داخل نطاق الحكى ومشاركا فيه.

وقد كان السارد في الخطاب النثري القديم، والخطاب الشعري الشعبي – مثلا– يأخذ شكل القول: قول الراوي، ولكنه مع المداخلات الحديثة للأدب اختفى الراوي لأنه لم تعد الحاجة ماسة إلى افتراض وجود شخصية تروي النص، ومن جهة أخرى فقد اختفي الراوي الذي تطغى معرفته على معرفة شخصياته.

أما في الشعر فإن الأمر يختلف، حيث يمتزج المؤلف الحقيقي مع المؤلف الضمني الذي يصنعه الكاتب في خطابه الشعري، فالنص الشعري قد يعتمد على شخصية واحدة ساردة تروي الأحداث، وتسرد الأحاديث والصفات والأفعال والأفكار.

فإذا كانت السيرة الذاتية هي سرد سيرة حياة إنسان، ورصد منجزاته، وإذا كانت الرواية فنا أدبيا سرديا له مقوماته الفنية وسماته الجمالية المعروفة، فإنه بالضرورة يكون هناك تداخل واضح بينهما، ذلك أن سارد السيرة الذاتية يحكي رواية حياته (مستخدما ضمير "أنا"، أو "هو" كما فعل طه حسين في سيرته)، أما سارد الرواية فإنه لا يلتزم صيغة واحدة محددة عبر العمل كما تفعل السيرة الذاتية، وإنما تكون هناك ذوات متعددة إلى جانب ذاته هو، كما أنه يصنع سيرا ذاتية لشخوص لابد لها في نهاية الأمر من أن تتمثل واقعيا في وعي المتلقي ليستقبلها، وإلا استشعر أنها لا تنتمي لعالمه الأرضي، كما يحدث في أدب الخيال العلمي مثلا.

ثمة فارق آخر بينهما، وهو المساحة النصية التي تشغلها الذوات (الشخصيات) داخل العمل الروائي، ففي السيرة الذاتية يكون السارد هو المهيمن على المساحة النصية، وهو الفاعل الذي يدور حوله مسار الحكي، أما في الرواية المعتمدة السرد الذاتي، فإن المساحة النصية للذات الساردة تتقاسمها ذوات أخرى متعددة (شخصيات) لا بد من حضورها لكي يصبح العمل رواية بالمفهوم الفني، وحتى الروايات التي تكون معتمدة الاستبطان النفسي وتبدو في إجمالها أنها سرد ذاتي محض، فإنها لا تخرج عن هذا الإطار (التقاسم مع ذوات أخرى في بنية

السرد).

وكما سبق القول، فإن الحيدري شغل ببحث فن السيرة الذاتية في الأدب السعودي، ولم يكتف بإنجازه لرسالة الماجستير التي صدرت في الكتاب السابق، وإنما واصل البحث العلمي في هذا الموضوع، فكان كتابه "**إضاءات في أدب السيرة والسيرة الذاتية: بحوث ومقالات وحوارات**"، الصادر عن دار الانتشار العربي في العام ٢٠١٨هـ.

ويتكون الكتاب من عدة مقالات ودراسات وأبحاث هي نتاج رحلة ومسيرة الأستاذ الأكاديمي في كلية اللغة العربية بالرياض، ومشاركاته العلمية في الملتقيات الفكرية والندوات والمؤتمرات والصحف والمجلات والدوريات، وغيرها.

وينقسم الكتاب إلى قسمين:

أحدهما مقالات تتناول كتاب عبدالعزيز الخويطر "وسم على أديم الزمن "، والمقالات الإحدى عشر عن السيرة الذاتية في الأدب السعودي الملقاة في نادي الإحساء الأدبي عام ١٤٣١هـ.

أما القسم الثاني فيضم المقابلات الصحفية التي أجريب مع المؤلف حول السيرة الذاتية وشواغلها الفكرية والإبداعية.

وأما عن سيرة عبد العزيز بن عبدالله بن علي الخويطر، فتأتي أهميتها لأسباب عدة، أولها أنها صادرة في عشرة أجزاء وهو حجم لم تبلغه سيرة ذاتية سعودية، وثانيها أن الخويطر له مكانة في نهضة وتطور المملكة إجمالا، لأنه كان أديبا ومؤرخا ووزيرا مبرزا في المملكة العربية السعودية تولى وزارة الصحة ووزارة المعارف (التعليم) وكثير من المناصب الأخرى، وثالثها لأنها متنوعة المشارب والاتجاهات والتقنيات التي شملت كل أنواع الكتابة في السيرة الذاتية بصيغتها الفنية المتداولة عالميا، ورابعها لأن مؤلفاته بلغت الثلاثة وعشرين كتابا، منها على سبيل المثال: في طرق البحث ١٣٩٥هـ، والملك الظاهر بيبرس "باللغتين العربية

والإنجليزية" ١٣٩٦ هـ، وتحقيق كتاب "الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر"، وتحقيق كتاب "حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية" لشافع بن علي ، و أي بنيّ (خمسة أجزاء) ، وإطلالة على التراث (سبعة عشر جزءًا) بدءا من عام ١٤١٤هـ، ولمحة من تاريخ التعليم في المملكة العربية السعودية، و رصد لسياحة الفكر (٤ أجزاء) ١٤٢٨هـ، وغيرها كثير من المؤلفات الإبداعية والفكرية والتاريخية.

وقد شغلت كتاباته العديد من الدراسات والأبحاث التي أنجزت فيها رسائل الماجستير والدكتوراه، إضافة لعشرات المقالات في الدوريات العربية، مما يجعله من أهم من كتب السيرة الذاتية في هذه المرحلة، وهو ما يجعل الحيدري يفرد له كل هذه المساحة من كتابه.

إن اهتمام الحيدري بفن السيرة الذاتية في المملكة، إنما هو بداية لأن يتم تناول هذا الفن بالدراسة والتحليل في بقية بلدان الوطن العربي، لما له من أهمية في رصد ليس فقط تطور الأفراد ونمو وعيهم، وإنما أيضا في تطور الشعوب العربية ورصد مراحل انتقالاتها الزمنية، ومواكبتها لحركات التطور المحيطة بها عالميا.